

## الصوت اللغوي في فواصل الآيات القرآنية

د. محمد

حسين علي الصغير

أستاذ

في كلية الدراسات الإسلامية

جامعة الكوفة

### مصطلح الفاصلة في القرآن الكريم.

الفاصلة في القرآن الكريم : آخر كلمة في الآية ، كالفافية في الشعر ، وقرينة السجع في النثر، خلافاً لأبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤ هـ) الذي اعتبرها كلمة آخر الجملة <sup>(١)</sup> . إذ قد تشتمل الآية الواحدة على عدة جمل ، وليست كلمة آخر الجملة فاصلة لها، بل الفاصلة آخر كلمة في الآية ، ليعرف بعدها بدء الآية الجديدة بتمام الآية السابقة لها.

قل القاضي أبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ): الفواصل حروف متشكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني <sup>(٢)</sup> .

وتقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها ، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام ، وتسمى فواصل ، لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها.

وقد تكون هذه التسمية اقتباساً من قوله تعالى: (كَتَابٌ فَصَّلْتُ أَيْأَتُهُ) <sup>(٣)</sup> ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً لأن الله لما سلب عن القرآن اسم الشعر وجب سلب القافية عنه أيضاً لأنها منه، وخاصة في الاصطلاح <sup>(٤)</sup> .

وما ورد في القرآن متناسق حروف الروي والإيقاع ، موحد خاتمة الفاصلة بالصوت، ويقف فيه بالآية على الحرف الذي وقف عنده في الآية التي قبلها، فلا يسمى سجعاً عند علماء الصناعة ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلها فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقل : هو سجع معجز ، لجاز أن يقولوا : شعر معجز ، وكيف والسجع مما كان تألفه لك هان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات بخلاف الشعر. <sup>(٥)</sup>

إذن لم يسموها أسجاعاً، ولم يصطلحوا عليها قوافي ، إذ استبعدوا تسميتها بالقوافي تكريماً للقرآن بأن يقاس على منظوم كلام البشر ، وستأتي معالجة هذا الرأي فيما بعد، وأما تجنب تسميتها سجعاً . فلأن أصله من سجع الطير، فشرّف القرآن أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر، ولأجل

تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام أحاد الناس<sup>(٦)</sup>.

والمدرک الأول يساعد عليه م قضي تفسیر اللغة ، وأصول إرجاع المصطلحات إلى قواعد الأولى، قل ابن دريد (ت: ٣٢١ هـ): سجت الحمامة معناه: رددت صوتها<sup>(٧)</sup>.

والمدرک الثاني يساعد عليه الاعتبار العام ، وتبادر الذهن في الفهم ، فقد شاع السجع بين العرب في الجاهلية ، واقتسمه كل من الخطباء والكهان والمنتبئين، وتوازن استعماله متفرقاً بين أصناف من الناس.

يبدو مما سلف أن مما تواضع عليه جهابذة الفن ، وأئمة علوم القرآن ، يضاف إليهما علماء اللغة، هو: أن نهاية بيت الشعر تسمى قافية، ونهاية جملة النثر تسمى سجعاً في الأسجاع، ونهاية الآية تسمى فاصلة.

وهذا التفريق قائم على أساس يجب أن نتخذه أصلاً، وبرنامج ينبغي القول به دون سواه، وهو أن الكلام العربي – مطلقاً على ثلاثة أنواع : قرآن، نثر ، شعر، فليس القرآن نثراً وأن أستعمل جميع أساليب النثر عند العرب، وليس القرآن شعراً وأن اشتمل على جميع بحور الشعر العربي حتى ماتداركه الأخفش على الخليل فسمي متداركاً ، وهو الخبب ، بل هو قرآن وكفى ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ \* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾<sup>(٨)</sup>.

قل الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ): وقد سمي الله كتابه المنزل قرآنًا، وهذا الاسم لم يكن حتى كان<sup>(٩)</sup>.

وإذا تم هذا فهو كلام الله تعالى وحده، وأنى يقاس كلام البشر بكلام الله ، هو إذن متميز حتى في التسمية عن كلام العرب تشريفاً له، وأعداداً به، وإن وافق صور الكلام العربي ، وجرى على سننه في جملة من الأبعاد ، كما يقال عند البعض ، أو كما يتوهم ، بأن ختام فواصله المتوافقة هي السجع ، فالتحقيق يقتضي الفصل بين الأمرين، لأن مجيء كثير من الآيات على صورة السجع لا توجب كونه هو، أو أنها منه لأنه قد يكون الكلام على مقل السجع وإن لم يكن سجعاً، لأن السجع من الكلام ، يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك مما هو في معنى السجع من القرآن ، لأن اللفظ وقع فيه تابعاً للمعنى، وفرق بين إن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، وبين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان إفادة السجع إفادة غيره ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى<sup>(١٠)</sup>.

وقد رأينا عند تعقب هذه الظاهرة: أن التعبير المسجوع في القرآن لا تفرضه طبيعة النسق القرآني فحسب كما يخيّل للكثيرين عند النظر في مثل قوله تعالى: ﴿أَلِهَآكُمُ النَّكَآثُ \* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾<sup>(١١)</sup>. بدليل أنه ينتقل منه

فوراً إلى نسق آخر في فاصلة تقف عند النون دون التفات إلى الصيغة الأولى السارية في طريقها البياني (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ \* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) <sup>(١٢)</sup> فإذا جاز للقرآن الانتقال بها، جاز له الانتقال فيما قبلها كما هو ظاهر، بل أن هذا اللفظ المقابر يفرض نفسه فرضاً بيانياً قاطعاً، دون حاجة إلى النظر في الفاصلة معه، أو مع محسنات الفاصلة، وذلك أن هذا الإنسان المتناسي الطاعني المتكاثر بأمواله ولذاته، وشهوته، ومخدراته، ونسائه، وأولاده، ودوره، وقصوره، وخدمه، وحشمه، وإدارته، وشؤونه، وسلطانه، وعنوانه، وهذا كله تكاثر قد يصحبه التفاخر، والتمايز، والتنافر، أقول: إن هذا مما يناسبه لفظ المقابر بلاغياً ولغوياً، فالمقابر جمع مقبرة، والمقبرة الواحدة مربعة هائلة، فإذا ضممنا مقبرة مترامية الأطراف إلى مقبرة مثله، ومقبرة أخرى، ازددنا إحاشاً ورعباً وفرعاً، فإذا أصبحت مقابر عديدة 'تضاعف الرعب الرهب، أذن هذا التكاثر الشهبواني في كل شيء، يوافقه - بدقة متناهية - الجمع المليونية للقبور، لتصبح مقابر لاقبوراً، ولو قيل في غير القرآن بمساواة القبور للمقابر في الدلالة لما سدّ هذا الشاعر الدلالي شيء آخر من الألفاظ، فهو لها فحسب <sup>(١٣)</sup>.

فإذا أصبحت مقابر عديدة 'تضاعف الرعب الرهب، إذن هذا التكاثر الشهبواني في كل شيء، يوافقه - بدقة متناهية - الجمع المليونية للقبور، لتصبح مقابر لاقبوراً، ولو قيل في غير القرآن بمساواة القبور للمقابر في الدلالة لما سدّ هذا الشاعر الدلالي شيء آخر من الألفاظ، فهو لها فحسب <sup>(١٣)</sup>.

أذن ليست هذه الصيغة البلاغية في استعمال المقابر مجرد ملائمة صوتية للتكاثر، وقد يحسّ أهل هذه الصنعة ونحن معهم فيها؛ نسق الإيقاع، وانسجام النغم، ولكن ليس هذه كل شيء <sup>(١٤)</sup>.

ولا يعني هذا التغافل عن مهمة الانسجام الصوتي، والوقع الموسيقي في ترتيب الفواصل القرآنية، فهي مرادة في حد ذاتها إيقاعياً، ولكن يضاف إليها غيره من الأغراض الفنية، والتأكيدات البينانية، مما هو مرغوب فيه عند علماء البلاغة، فقواه تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ \* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ \*﴾ <sup>(١٥)</sup>. فقد تقدم المفعول به في الآيتين، وهو اليتيم في الأولى، والسائل في الثانية، وحقه التأخير في صناعة الإعراب، وقد جاء ذلك مراعاة لنسق الفاصلة من جهة، وإلى الاختصاص من جهة أخرى، للعناية في الأمر.

ولعل ابن الأثير (ت: ٦٣٧ هـ) كان مصيباً جداً حينما أرجع ذلك إلى الاختصاص ونظم الكلام، ولم يقل بأحدهما <sup>(١٦)</sup>. بينما عاد بها إبراهيم أنيس إلى مراعاة موسيقى الفاصلة القرآنية إذ لا يصح للمفعول أن يسبق ركني الإسناد في الجملة المثبتة كما يزعّم أصحاب البلاغة <sup>(١٧)</sup>.

وقد رده الدكتور أحمد مطلوب في هذا الملحظ، لأن الهدف ليس القهر والنهر في المقام الأول، وإنما الرُّجحة باليتيم والسائل، ولذلك تقدم المفعولان على

فعليهما، ولو كان القصد غير ذلك لتأخرا وجاءا على نسق الكلام المحفوظة رتبته<sup>(١٨)</sup> ومهما يكن من أمر، فإن السجع عند العرب مهمة لفظية تأتي لتناسق أواخر الكلمات في الفقرات وتلاؤمها، فيكون الإتيان به أنى اتفق لسد الفراغ اللفظي، وأما مهمة الفاصلة القرآنية فليس كذلك، بل هي مهمة لفظية معنوية بوقت واحد، إنها مهمة فنية خالصة، فلا تفريط في الألفاظ على سبيل المعاني، ولا اشتطاط بالمعاني من أجل الألفاظ، بينما يكون السجع في البيان التقليدي مهمة تنحصر بالألفاظ غالباً، لذلك ارتفع مستوى الفاصلة في القرآن بلاغياً ودالياً عن مستوى السجع فنياً، وان وافقه صوتياً.

وهنا نشير إلى أن ابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦ هـ) قد ردّ جزءاً من هذه المفضلة بين السجع والفاصلة، وخلص إلى سبب التسمية في معرض نقاشه لعلي بن عيسى الرماني؛ وأما قول الرماني إن السجع عيب، والفاصل على الإطلاق بلاغة فغلط، فإنه إن أراد بالسجع ما يتبع المعنى، وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة، والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له، وهو مقصود متكلف، فذلك عيب، والفاصل مثله... وأظن أن الذي دعا إلى تسمية كل ما في القرآن عن الوصف ولم يسمّوا مات ماثلت حروفه سجعاً رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم، وهذا غرض في التسمية قريب<sup>(١٩)</sup>.

ويلحظ من النص، أنه يغيب ما ينافي البلاغة سواء أكان سجعاً أم سواه، ويشير إلى ناحيتين:

الأولى: أن الفواصل هي كل ما في أواخر الآيات تماثلت حروفه أو لم تتماثل خلافاً للسجع المتمثل الحروف.

الثانية: أن اختصاص أواخر الآيات بتسمية الفواصل إنما وقع لرغبتهم أن لا يوصف كلام الله تعالى بالكلام المروي عن الكهنة لا مطلق السجع معرفة فواصل القرآن صوتياً:

من أجل تمييز الفاصلة، ومعرفتها صوتياً، علينا تتبع فواصل الآيات بالدقة والضبط، في تنقلها في القرآن عبر مسيرتها الإيقاعية.

قل إبراهيم بن عمر الجعبري (ت: ٧٣٢ هـ):

لمعرفة الفواصل طريقان: توقيفي وقياسي. أما التوقيفي: فما ثبت

أنه وقف عليه دائماً، تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائماً، تحققنا أنه ليس بفاصلة...

وأما القياسي فهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب، ولا محذور في ذلك، لأنه لازيادة فيه ولا نقصان، والوقف على كل كلمة جائز، ووصل القرآن كله جائز، فاحتاج القياس إلى طريق تعرّفه، فنقول: فاصلة الآية كقرينة السجعة في النثر، وقافية البيت في الشعر، وما يذكر من

عيوب القافية من اختلاف الحد والإشباع والتوجيه فليس بعيب في الفاصلة ،  
وجاز الانتقال في الفاصلة ، والقرينة ، وقافية الأرجوزة بخلاف قافية القصيدة  
(٢٠).

ومن هنا كان التنقل في فواصل القرآن ، إذ لا يلتزم فيها الوقوف عند حرف معين في مواضع من السور ، ويلتزمه في مواضع أخرى ، ويجمع بين الالتزام وعدمه في بعض السور ، لأن الانتقال من الوقوف على حرف إلى الوقوف على حرف آخر ، أو صيغة تعبيرية أخرى في فواصل القرآن أمر مطرد وشائع ، ونماذج هائلة ، كما أن الالتزام شائع أيضاً ، والجمع بينهما وارد كذلك ، ومن هنا تبرز ثلاثة ملامح على سبيل المثال :

الأول : جمع القرآن بين تحشرون والعقاب وهما مختلفان في حرف الفاصلة والزنة في قوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ \* وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَلَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢١).

وفي السورة نفسها ج مع بين تعلمون و عظيم (٢٢) . وهذا مطرد في القرآن بالآلاف الأمثلة.

الثاني : الوقوف عند حرف معين لا يتغير في الفاصلة كما في سور عدة ونماذج متعددة ، فمن أمثلته عادة جملة من السور القصار ، كالقمر ، والعصر ، والفيل ، والليل ، والكوثر ، والإخلاص ، والناس ، وجملة من السور الوسطى كالأعلى والقمر ، وفيها جميعاً مراعاة للمنهج الصوتي ، والبعد الإيقاعي ، ويتجلى النغم الصوتي المتميز بأبهى صورته ، وأروع مظاهره في سورة القمر ، إذ تختتم فيها الفاصلة بصوت الراء مردداً بين طرف اللسان وأول اللهاة مما يلي الأسنان.

الثالث : الوقوف عند حرف معين للفاصلة في بعض السور ، والانتقال منه للوقوف عند حرف آخر للفاصلة في بعضها الآخر ، وأمثلته متوافرة في جملة من سور القرآن ، كالنبا ، والمرسلات ، والنازعات ، والتكوير ، والانفطار ، والمطففين ، وأنظر إلى قوله تعالى في سورة عبس وهي تواكب صوت الهاء في فواصل عدة آيات ، ثم تنتقل إلى الراء الملحقة بالتاء القصيرة بعدها في آيات أخر :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ \* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ \* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ \* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ \* وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفَرَةٌ \* ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ \* وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ \* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ \* أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (٢٣).

وقد لا يراد الملحظ الصوتي مجرداً عند الأبعاد الأخرى في فواصل الآيات ، فقد يجتمع في الفاصلة الغرض الفني بجانب الغرض الديني ، فتؤدي الفاصلة غرضين في عمل مزدوج ، فمن أبرز الصور الاجتماعية الهادفة في سورة البلد : آيات العقبة ، وتفصيلات يوم القيامة ، في تجاوز مظاهر الغل والقيد ،

ومراحل الفقر والجوع ليتم تجاوز العقبة الحقيقية في القيامة ، ولأيتم ذلك إلا بتجاوز عقبات الظلم الاجتماعي، وتخطي مخلفات العهد الجاهلي ، واقتحام القيم التي عطلت الحياة الإنسانية عن مسيرتها في التحرر والانطلاق ، وهي قيم قاتلة ، وأعراف بالية نشأت عن الطغيان المتسلط ، والتفاوت الطبقي المقيت ، فالرق ضارب بأطنابه ، والاستئثار شكل مجاعة بشرية جماعية ، والقطيعة في

الأرحام أنهكت الأيتام ، والغنى اللامشروع فجر سبلاً من الأضرار الاجتماعية تشكل رعيلاً سادراً من الأرامل والأيامى والمساكين ، ممن ألصقهم الفقر بالتراب ، أو لصقوا هم به من الفقر والضر والفاقة ، حتى عادوا جزءاً منه، وعاد هو جزءاً من كيانه ، فمن التراب وعلى التراب والى التراب.

هذا المناخ المزري عقببت متراكمة، من فوقها عقببت متراكمة ، وإزالة هذه العقبات تدريجياً هو الطريق إلى قفر تلك العقبة الكبرى وتجاوزها ، في حياة قوله تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ \* وَمَا أُنْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ \* فَكُ رَقَبَةً \* أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ \* يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ \* أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (٢٤).

ما هذا الإيقاع المجلجل ؟ وما هذه النبرات الصوتية الرتيبة ؟ وما هذا النسق المتوازن ؟ العقبة ، رقبة ، مسغبة ، مقربة ، متربة ، أصداء صوتية متلاحقة، في زنة متقاربة، زادها السكت رنة وتأثيراً ولطف تناغم ، وسط شدة هائلة مرعبة ، وخيفة من حدث نازل متوقع ، فالإقتحام في مصاعبه ومكاباته، والعقبة في حراجتها والتوائها ومخاطرها ، يتعانقان في موضع واحد، يوحى بالرهبة والفرع.

(( والإقتحام هو أنسب الألفاظ للعقبة لما بينهما من تلاؤم في الشدة والمجاهدة واحتمال الصعب، والمناسبة بين اقتحام العقبة وبين خلق الإنسان في كبد، أوضح من أن يحتاج إلى بيان، والجمع بينهما في هذا السياق، يقدم لنا مثلاً رائعاً من النظم القرآني المعجز : فالإنسان المخلوق في كبد ، أهل لأن يقتحم أشد المصاعب، ويجتاز أقسى المفارز، على هدى ما تهيأله من وسائل الإدراك والتميز، وما فطر عليه من قدرة على الاحتمال والمكابدة) (٢٥).

قل الطبرسي (ت: ٥٤٨ هـ) وهو يتحدث عن هذا السياق: إنه مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال الخير والبر ، فجعل ذلك كتكليف صعود العقبة الشاقة الكؤود ، فكأنه قل : لم يحمل على نفسه المشقة بعثت الرقبة والإطعام (٢٦).

وإرادة التائب والتعنيف مع الحظ والترجيح والتحبیب ، في صيغة الرفي وتقريره، والاستفهام وتهويله، حافز وأي حافز على معالجة هذه المخاوف الاجتماعية السائدة ، ودرء هذه المشاكل العالقة في المجتمعات المتخلفة : السغب، اليتيم، المسكنة، إنها أفلت متطاولة تنخر في بيئة الجسم الإنساني فتهدمه،

واقتحامها بحزم يتركها وراء الإنسان مسافات مترامية ، وذلك ما يهيئ السبيل إلى تجاوز المترتبة الوقوع ، في كل معانيها البيانية : حقيقة كانت أو مجازية.

أن ورود هذه الآيات في نسق صوتي متجانس، وصيغة إصلاحية هادفة ، يضيفي على الفصل القرآنية، جمالها المعهود ، وحسها الإيقاعي الهادر، دون تطلع إلى تعبير مماثل أو مغاير، فهي تمتلك النفس، وتأخذ بالإحساس في نظام رتيب ؛ فالحرية أولاً، والعطاء المعني ثانياً، بدءاً بالأرحام ، وعطفاً على الآخرين، وفيها أخذ بملحظ القرابة والرحم، وحث على تقديم ذوي القربى من المعوزين على الأبعد في فك القيود، وعتق الرقاب، والإطعام بإحسان. ظواهر الملحظ الصوتي في فواصل الآيات:

الملحظ الصوتي في فواصل الآيات القرآنية قائم على عدة ظواهر ، نرصد منها أربع ظواهر:

الأولى: وتتمثل بزيادة حرف ما في الفصل وعناية للبعد الصوتي ، وعناية بنسق البيان في سر اعتداله ، ليؤثر في النفس تأثيره الحساس ، فتشرب الأعناق، وتطلع الأفئدة حين يتواصل النغم بالنغم ، ويتلاحم الإيقاع بالإيقاع ، وأبرز مظاهر هذه الظاهرة ألف الإطلاق إن صح التعبير بالنسبة للقرآن، فقد ألحقت الألف في جملة من الآيات بأواخر بعض كلماتها ، وكان حقها الفتح مطلقاً، دون مدّ الفتحة حتى تكون ألفاً، وانظر معي في سورة واحدة، إلى كل من قوله تعالى، وكان ذلك معنيّ بحد ذاته ومقصود إليه لا ريب:

وقل تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ (٢٧).

وقل تعالى: ﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ (٢٨).

وقل تعالى: ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٢٩).

يبدو أن إلحاق هذه الإلف في الظنون السبيل الرسول يشكل تلقائياً ظاهرة صوتية تدعو إلى التأمل، وإلا فما يضير ليفتح لولا الملحظ الصوتي لأن فواصل هذه السورة منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد على النون ألف لتساوي المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل (٣٠).

وما يقال هنا يقل فيما ورد بسورة القارعة في زيادة هاء السكت وإلحاقها في هي لتوافق الفصل الأولى الثانية في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَثَرُكَ مَا هِيَّةُ \* نَارٌ حَامِيَّةُ﴾ (٣١).

وهيا إلى سورة الحاقة وانظر إلى هاء السكت في إضا فتها وإنارتها في جملة من آياتها، فتقف خاشعاً مبهوراً، تمتلك هزة الأعماق وأنت مأخوذ بهذا الوضع الموسيقي الحزين، المنبعث من أقصى الصدر وأواخر الحلق، فتقطع الأنفاس، وتتهجد العواطف، واجمة، متفكرة، متطلعة، فتصافح المناخ النفسي المتفائل حيناً، والمتشائم حيناً آخر ، وأنت فيما بينهما بحالة مترجحة بين اليأس والرجاء ، والأمل والفرع ، والخشية والتوقع ، فسبحان الله العظيم حيث يقول :

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ \* فَأَمَّا مَنْ أَقْرَأَ \* وَكَتَابَيْهِ \* إِنِّي ظَنَنْتُ  
 أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابَيْهِ \* فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ \* فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ \*  
 قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ \* كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ \* وَأَمَّا مَنْ  
 أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُلْ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابَيْهِ \* وَلَمْ أُنرِّمَ مَا حِسَابَيْهِ \* يَالَيْتَهَا  
 كَانَتْ الْقَاضِيَةَ \* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ \* هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ \* ﴿٣٢﴾  
 فأنت تلاحظ الفواصل : كتابيه، حسابيه، ماليه، سلطانيه، قد أزييت فيها هاء  
 السكت رعاية لفواصل الآيات المختومة بالتاء القصيرة و التي اقتضى السياق  
 نطقها هاءً للتوافق.

وما زلنا عن الهاء، فتطلع إليها، وهي ضمير ملصق بالفواصل، غير زائد بل  
 أصلي الوجود، وقد حقق بذلك وقعه في النفس ، وجرسه في الأذن، وقوته في  
 امتلاك المشاعر، قل تعالى:

(يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِنِيهِ \* وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ  
 الَّتِي ثَوِيهِ \* وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ \* ﴿٣٣﴾  
 فلا زيادة في هذه الهاء، وهي ضمير في الفواصل كلها، وقد حققت صوتياً  
 مناخ الانتباه، ورصد مواضع الإصغاء من النفس الإنسانية.  
 الثانية: وتتمثل بحذف حرف ما رعاية للبعد الصوتي، وعناية بالنسق القرآني  
 كما في قوله تعالى:

﴿وَالْفَجْرِ \* وَلَيْلٍ عَشْرِ \* وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ \* وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ \* ﴿٣٤﴾  
 فقد حذفت الياء من يسري موافقة للفصلة فيما يبدو ومثله قوله تعالى :  
 ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ \* وَأَمَّا إِذَا مَا  
 ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (٣٥).

فالياء من اكرمن و اهانن قد حذفت رعاية لهذا الملحظ، ولما في النون من  
 الغنة عند الوقوف عليها فيما يبدو ، ويظهر أن هذا الامر مطرد في جملة من  
 آيات القرآن الكريم في الفواصل ما في قوله تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٣٥)

الثالثة: وتتمثل في تأخير ماحقه التقديم، وتقديم ما حقه التأخير ، زيادة  
 في العناية بتركيب السياق ، وتناسق الألفاظ، وترتيب الفواصل ، كما في قوله  
 تعالى : (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ) (٣٦) . فتأخر الفاعل وحقه التقديم،  
 وعليه يحمل تقديم هارون على موسى في قوله تعالى :

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى \* ﴿٣٧﴾ . فَإِنْ  
 هارون وزير لموسى ، وأهمية موسى سابقة له ، وقدم هارون عليه رعاية  
 لفواصل آيات السورة، إذا انتظمت على الالف والالف المقصورة في أغلبها ،  
 والله العالم.



الرابعة: أشار الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ) أنه قد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب (٣٨).

وحكى سيبويه (ت: ١٨٠ هـ) عن العرب أنهم إذا ما ترنموا فإنهم يلحقون الألف والواو والياء ، ما ينون ، وما لا ينون ، لأنهم أرادوا مدّ الصوت (٣٩).

وورود النون بعد حروف المدّ متواكبة في القرآن حتى عاد ذلك صوتياً متجلياً في جزء كبير من فواصل آيات سورة، ونشير على سبيل النموذج الصوتي لكل حرف من حروف المدّ تليه النون بمثل واحد.

١- وردت الألف مقترنة بالنون في منحنى كبير من فواصل سورة الحمن

على نحوين:

الأول: وردهما متقاطرين، وهما - أي الألف والنون - من أصل الكلمات كما في قوله تعالى:

﴿الرَّحْمَنُ \* عَلَّمَ الْقُرْآنَ \* خَلَقَ الْإِنْسَانَ \* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ \* الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (٤٠).

الثاني: وردهما متقاطرين ، وهما - أي الألف والنون - ملحقان بالكلمة علامة للرفع ودلالة على التثنية كما في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ \* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ \* فَبِأَيِّ آءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤١). ويتحقق في النحوين مدّ الصوت تحقيقاً للترنم.

٢- وردت الياء مقترنة بالنون في ابعاد كثيرة من فواصل الآيات

القرآنية، ففيهما اقتص الله من خبر نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ \* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَأَنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ \* ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ \* (٤٢).

والطريف أن سورة المؤمنين تتعاقب فواصلها الياء والنون أو الواو والنون، شأنها في ذلك شأن جملة من سور القرآن، فكانها جميعاً تعنى بهذا الملحظ الدقيق.

٣- وردت الواو مقترنة بالنون في اجزاء عديدة ومتنوعة من فواصل

طائفة كبيرة من السور ، فسورة الشعراء فيها تعاقب كبير على الياء والنون مضافاً إليه التعاقب على الواو والنون موضع الشاهد كما في قوله تعالى:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشَرِذِمَةٌ قَلِيلُونَ \* وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَاظُونَ \* وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ \* فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* (٤٣).

إن ما أبداه الزركشي من ختم كلمة مقطع الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، ليس بالضرورة للتمكن من التطريب ، ولكنه يشكّل ظاهرة

بارزة في صيغ تعامل القرآن الكريم مع هذه الحروف مقترنة بالنون وقد يخفى علينا السبب، ويغيب عنا جوهر المراد، ومع ذلك فهو ملحظ متحقق الورد. الإيقاع الصوتي في موسيقى الفواصل:

هناك سمات إيقاعية في سياق فواصل الآيات ، ومن خلال عبارات الجمل والفقرات التي أرتبطت بنسق جمهرة من آيات القرآن المجيد، نجم عنها كثير من الإشكال في التفسير لوجودها مجارية لزنة جملة من بحور الشعر، وبدأ محررو علوم القرآن ، يتصدون للدفاع عن ذلك حيناً ولتفسيره كلامياً احتجاجياً بلغة الجدل حيناً آخر، ولو أنهم عمدوا إلى ربط مثل هذه الظواهر بالإيقاع الصوتي لكان ذلك رداً مفحماً ، ولو فسروها صوتياً لأرتفع الإشكال وتلاشى.

القرآن كلام الله فحسب، ليس من جنس النثر في صنوفه وإن أشتمل على نروة مميزاته العليا ، ولم يكن ضرباً من الشعر وإن ضم بين دفتيه أوزان الشعر جميعاً ﴿ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ \* وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَّا تَذْكُرُونَ \* نَزَّلَ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* ﴾ (٤٤) . فهو ليس من سنح ما يتقولون ، ولا بنسيج ما يتعارفون ، ارتفع بلفظه ومعناه، وطبيعته الفنية الفريدة، عن مستوى الفن ألقولي عند العرب فالمقولة بأنه شعر باطلة من عدة وجوه:

الأول: التأكيد في القرآن نفسه بنفي صفة الشعر عنه ، والتوجيه بأنه ذكر وقرآن مبين بقوله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ\*) (٤٥)

الثاني: الرد في القرآن على دعوى القول بأن النبي شاعر ، وأن القرآن منه في ثلاثة مواطن :

١- الملحظ الافتراضي الموجه إليه، والمعبر عن حيرة المشركين: ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامُ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ \* ﴾ (٤٦) .

٢- التعصب الأعمى للآلهة المزعومة دون وعي، وبكل إصرار بافتعال الادعاء الكاذب: ﴿ وَيَقُولُونَ أَأَنْتَا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ \* ﴾ (٤٧) .

٣- التربص بالنبي ﷺ وتوقع الموت له، بزعمهم أن سيموت شعره المفترض معه !!

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ \* ﴾ (٤٨)

الثالث: أن العرب لو اعتقدوا أن القرآن شعر لأسرعوا إلى معارضته من قبل شعرائهم، فالشعر ديوان العرب، وقصائدهم معلقة بالكعبة تعبيراً عن اعتدادهم بالشعر، واعتزازهم بالشعراء ، وهم أئمة البيان ورجال الفصاحة ، ولكنها مغالطة واضحة ولو كان ذلك لكانت النفوس تتشوق إلى معارضته، لأن طريق

الشعر غير مستصعب على أهـ ل الزمان الواحد ، وأهله يتقاربون فيه ، أو يضربون فيه بسهم <sup>(٤٩)</sup> .

الرابع : إن الشعر إنما يقصد إليه بذاته فينظم مع إرادة ذلك ، ولا يتفق اتفاقاً أن يقول أحدهم كلاماً فيأتي موزوناً ، فالشعر إنما ينطلق متى قصد إليه على الطريق التي تعمد وتسلك ، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء دون ما يستوي فيه العامي والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه ، وما يتفق من كل واحد ، فليس بشعر فلا يسمى صاحبه شاعراً ، وإلا لكان الناس كلهم شعراء ، لأن كل متكلم لا ينفك أن يعرض في جملة كلامه ما يتزن بوزن الشعر وينتظم بانتظامه <sup>(٥٠)</sup> .

سقنا هذا في حثيثة تنزيه القرآن عن سمة الشعر وصفته ، لأنه قد وجد فيه ما وافق شعراً موزوناً ، وما يريك فعل القرآن يريد أن يقول للعرب : إن هذا الشعر الذي تتفاخرون به ، نحن نحيطكم علماً بأوزانه على سبيل الأمثلة لتعتبروا بسوقها سياق القرآن في صدقه وأمانته ، ولا غرابة أن يكون القرآن يريد أن ينحو الشاعر بشعره منحى الحق والصرامة والفضيلة والصدق ، ومع هذا وذاك فما ورد من الموزون فيه جارٍ على سنن العرب في كلامها ، إذ قد يتفق الموزون ضمن المنثور ، بلا إرادة للموزون ، ولا تغيير للمنظوم . فقد حكى الـزركشي (ت : ٧٩٤ هـ) أن إعرابياً سمع قارئاً يقرأ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ \* ﴾ <sup>(٥١)</sup> .

فقل كسرت ، إنما قل :

يا أيها الناس اتقوا ربكم زلزلة الساعة شيء عظيم  
فقليل له : هذا القرآن ، وليس الشعر <sup>(٥٢)</sup> .

فاعتدده لأول مرة شعراً فحذف أن ليستقيم الوزن فيما عنده . ولو قلنا بالإيقاع الصوتي ، وفسرنا الورد البياني لهذا الـ مظهر الموزون بمجانسة الأصوات ، وقارئاً عن كثب بمناسبة الصوت للصوت ، وملائمة النطق بالحروف ، ومتابعة الأذن للموسيقى ، والسمع للنبر والتنغيم ، زيادة على ما تقدم لكننا قد أحسنا التعليل فيما يبدو ، أو توصلنا في الأقل إلى بعض الوجوه المحتملة ، أو الفوائد الصوتية المترتبة على هذا المعلم الواضح ، والله أعلم .

وقد يقل بأن هذا المعلم إنما ينطبق على أجزاء من الآيات لا الفصلة وحدها ، فيقال حينئذٍ بأن وجوه الفصلة في هذه الأجزاء من الآيات هو الذي جعل جملة هذا الكلام موزوناً ، فبدونها ينفرط نظام هذا السلك ، وينحل عقد هذا الإبرام لهذا نسبنا أن يكون الحديث عن هذا الملحظ ضمن هذا البحث . ومهما يكن من أمر ، فإن ورود ما ورد من هذا القبيل في القرآن ينظر فيه إلى غرضه الفني مضافاً إلى الغرض التشريعي ، وهما به متعانقان .

إننا بين يدي مخزون ثو في هذا الرصد ، ننظره وكأننا نلمسه ، ونتحسسه وكأننا نحيا به ، فحينما نستمع خاشعين إلى صيغة موزونة منتظمة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْوُثْرَ \* ﴾ <sup>(٥٣)</sup> . فإننا نتعامل مع وقع خاص يذكرنا بالعتاء غير المحدود للنبي الكريم ، وحينما نستمع - موزوناً - إلى قوله تعالى : ﴿ هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ لِمَا تَوْعَدُونَ ﴾ <sup>(٥٤)</sup> . تصك أسماعنا بلغة الوعيد ، فتخشع القلوب ، وتتحدس الأقدار .

وحينما نستمع - موزوناً - إلى قوله تعالى : ﴿ وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا ﴾ <sup>(٥٥)</sup> . نستبشر من الأعماق بهذا المناخ الهادي ، ونستشعر هذا النعيم السرمدي بإيقاع يأخذ بهجامع القلوب ، ويشد إليه المشاعر . وحينما نستمع - موزوناً - إلى قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ <sup>(٥٦)</sup> . يقرع أسماعنا هذا المصير الشديد العاتي ، فيستظهره السامع دون جهد ويجري مجرى الأمثال في إفادة عبرتها وحجتها . وحينما نستمع حالمين إلى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَلِيلَ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾ <sup>(٥٧)</sup> . فإننا نستشعر هذا الأمر بقلوبنا قبل الإسماع ، هادئاً متناسقاً ، وهو يدعو إلى تسبيح الله وتقديسه آناء الليل وأطراف النهار .

وحينما نستمع إلى قوله تعالى : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ <sup>(٥٨)</sup> . فغن العزائم تهب على هذا الصوت المدوي ، بإعلان النصر لنبيه ، والفتح أمام زحفه ، فتعم البشائر ، وتتعالى البهجة .

وحينما نستمع إلى قوله تعالى : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ <sup>(٥٩)</sup> . فالصوت الرفيق هذا يمس الأسماع مساً رفيقاً حيناً ، ويوقظ الضمائر من غفلتها حيناً آخر ، وهو يستدر كرم المخائل ، ويوجه مسيرة التعاطف ، وسدد مرصد الإنفاق ، والمسلم الحقيقي يسعى إلى البر الواقعي فأين موطنه ؟ إنه الإنفاق مما يحب عليه ، والفضل بأعز الأشياء لديه ، وبذلك ينال البر ما فوقه برّ .

وحينما نستمع إلى قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ \* فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ <sup>(٦٠)</sup> . وتمد الفتحة لتكون ألف إطلاق ، وتصبح في غير القرآن (اليتيم) فغنك تقف عند بحر الخفيف من الشعر ، وهو من الأوزان الراقصة ، تقف عند صرخة مدوية ، وجلجلة متأججة تقارن بين التكذيب بيوم القيامة ، وبين دعّ اليتيم في معاملته بخشونة ، وصده بجفاف وغلظة .

هذه النماذج الخيرة التي تبركنا بإيرادها ، والتي تنبه من الغفوة والغفلة ، وتدفع إلى الاعتبار والعظة ، وتريد من البصيرة والتدبر ، قد أضفى عليها الملحظ الصوتي موسيقاه الخاصة ، فعاد القول بصوتياته من جملة أسرارها الجمالية ، والتأكيد على تناغمها الإيقاعي من أبرز ملامحها الفنية . هذه ميزة من مزايا فواصل الآيات باعتبار العبارات .

